المحاضرة السابعة : برونشفيك واهم آراءه الفلسفية المثالية في الاخلاق .

لقد حرص برنشفيك في كتابه معرفة الذات على ابراز اهمية الانشطة المختلفة للروح الانسانية ، اذ يرى انه لا سبيل الى تحقيق تقدم الوعي الخلقي والوعي الديني الا اذا تسنى لنا ان نحرر الانسان من ارائه المبتسرة الحافلة بالانانية وتقاليده الزائفة القائمة على الايمان الحرفي ، ومثل هذا التحرر لايمكن ان يقوم الا على دعامة من حرية الروح العقلي وبالتالي فانه لابد من ان يستند الى اساس علمي . صحيح ان هذا الوعي العقلي لايمكن ان يكون عاليا على عقلية العالم الذي يتصور الحقيقة لكنه مع ذلك ليس مصبوغا بصبغة ذاتية ، نظرا لانه يقترن في العادة بعملية تعقل الانتاج العلمي بما ينطوي عليه من حقيقة وعظمة عقلية , ومعنى هذا ان الوعي العقلي الذي يضمن الطابع الكلي للعلم انما هو الذي يجمع بين الناس عن طريق ذلك العقل المشترك الناجم عن تلاقي افكارهم .

والحق انه ثمة تقدما عقليا يتحقق من خلال الفهم العلمي ، فينقل المرء من مرحلة الوعي الحسي الى مرحلة الوعي العقلي ، فهناك ايضا تقدم عقلي يتحقق في مضمار السلوك فينقل المرء من مرحلة الوعي الاناني المتمركز على الذات الى مرحلة الوعي الاخلاقي ، واذا كان من شان الوعي العقلي ان يحقق ضربا من التكافؤ او التوافق بين الانسان والكون ، فان من شان الوعي العقلي ان يحقق ضربا من التكافؤ او التوافق بين الانسان ومجموع البشرية . وحين يتحدث برنشفيك عن الضمير او الوعي الاخلاقي فانه لا يعني به سلطة تامر نا بفعل الخير وتنهانا عن فعل الشر ، بل هو يعني به شيئا اكثر من مجرد عملية الاسقاط الداخلي التي نحدد فيها علاقاتنا بانفسنا على ضوء بعض الالزامات الاجتماعية .

وقد يبدو لاول وهلة ان من شان الاخلاق ان تخضعنا لامر مطلق يصدر عن سلطة خارجية ، ولكن الحقيقة ان الرجل الفاضل هو اولا وقبل كل شيء انسان حر لا يعرف الخضوع الاعمى او الموافقة الاستسلامية ، لانه ينشد الخير وفقا لما يرى انه الحق لا وفقا لما يقضي به العرف او اي راي اخر مسبق ، واذا كان رجل الاخلاق يفيد الكثير من كل العلم والفن ، فذلك لان من شان العلم ان يغرس فيه روح النزاهة ، كما ان من شان الفن ان يبث في نفسه روح التعاطف او المشاركة وليس للحياة الاخلاقية من غاية سوى العمل على تحقيق ضرب من التوافق الداخلي بين الضمير ونفسه مع الاهتمام في الوقت نفسه بتحقيق ضرب من التوافق بين الضمائر المختلفة بعضها والبعض الاخر ، وهكذا تجيء الاخلاق فتعمل على التسامي بنا نحو مستوى الكلية الانسانية او الوحدة البشرية الشاملة .